على طريق الأصالة :

(٤٥)

اعادة النظر فى قضايا الفلسفة المادية

د/ أنور الجندى

إعادة النظر في قضايا الفلسفة المادية

نظرية فرويد فرض تلمودى لهدم إنسانية الإنسان

(١)

إن أبرز تطورات الفكر العالمي المعاصر في هذه الفترة من حياة البشرية تتمثل في إعادة النظر في جميع النظريات التي قدمها الفلاسفة وأصحاب الايديولوجيات خلال القرنين التاسع عشر والعشرين بما يؤدي إلى الاعتقاد بأن هذه المذاهب ليست إلا فروضاً قابلة للصحة والخطأ ، فالنظريات الرأسمالية والاشتراكية والماركسية داخلها اضطراب كبير واخترقتها المتغيرات فأفسدتها ، فاحتاجت إلى تعديل بالإضافة والحذف ، وكذلك الأمر في النظريات النفسية والاجتماعية) ومنها الوجودية والفرويدية والنظرية المادية ونظرية العلوم الاجتماعية في الأخلاق .

كل هذه النظريات وضعت في ظل مفاهيم ظن أنها ثابتة لن تتغير وأنها تمثل نظرة علمية مجردة ، وأنها تستطيع أن تجارى تغيرات الزمن واختلاف البيئة ولكنها لم تلبث أن أصابها الاضطراب . ذلك أن العقل البشرى الذى وضعها ليست له قدرة (المنهج الإلهى) على

الاحاطة والشمول والتكامل الجامع الذى يستطيع أن يستجيب لمختلف العصور وتغيرات البيئات ، فضلا عن مرونتها وأطرها الواسعة التى لايستطيع البشر أن يقدرها والتى هى من صنع الله تبارك وتعالى المحيط بكل شيء .

ومن هنا تعالت الأصوات فى الفكر العالمى المعاصر ، تخترق جدران هذه النظريات التى ظن يوماً أنها من العلم المجرد ، فقد تبين أنها ليست إلا فروضاً قابلة لدخول الخطأ والهوى والقصور إليها وأنها من الفكر البشرى المتغير .. هذا بالنسبة لهذه النظريات كفكر عالمى غربى مجرد ، أما بالنسبة لنا نحن المسلمين فإن هناك محاذير أخرى كثيرة تحول دون قبول فكرنا الإسلامى لهذه النظريات أو تقبلها أو الانتماء إليها أو اقتباسها ، هذه المحاذير تتمثل فى الفوارق الواسعة والعميقة بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى (بشقيه) فى القاعدة والمنطلق والتطبيق .

أبرز هذه الفوارق تتمثل فى مفهوم « الدين » نفسه . هذا المفهوم فى الغرب يعنى اللاهوت (أو العلاقة بين الله والإنسان) أما مفهوم الدين فى الإسلام فإنه يعنى مفهوماً كاملا جامعاً لعلاقة الإنسان بالله تبارك وتعالى وبالحياة وبالكون وبالمجتمع .

وفى ضوء هذا المفهوم ننظر إلى نظرية « فرويد » فى التحليل

النفسى . وهى نظرية قامت فى ظل استعلاء العلم المادى ، بدعوى إنه يستطيع أن يوجه الكون من دون الدين : وهى نظرية عنصرية الأساس أريد بها تدمير كرامة الإنسان وشرفه وتكامل شخصيته الجامعة بين الأسواق الروحية والمطامع المادية وفرض مفهوم (الجنس) كتفسير لكل تصرفاته فى الحياة .

وقد ارتبطت النظرية (الفرويدية) فى العقود الأخيرة وكشف علماء النفس عن عوراتها، وكانت غير مقبولة أصلا غير أن النفوذ التلمودى المسيطر على الآداب والفنون فى الغرب فرضها وجند لها الكتاب ورجال المسرح والقصص ليذيعوا بها وينشروها ، وتكشف أن (فرويد) كان يهدف ضمن مخطط واسع إلى تدمير إنسانية الإنسان وانه اعتمد فى نظريته على المرضى والشواذ ، واتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم ؛ وقد ترك من كتابته عن نفسه وحياته ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهواجسه ومشاكل صباه كيهودى فى النمسا المتعصبة ضد اليهود قاعدة كل تصميماته .

وقد عارض فرويد زميلاه فى التحليل النفسى (ادلرويونج) آراءه وانفصلوا عنه . . وقال يونج إن آراء فرويد ذات جانب واحد وإنها غير ناضجة كل النضوج وإن مصدر سرور الطفل فى الحصول على الغذاء يجب ألا يوصف بأنه جنسى أبداً ، وذلك على

اعتبار أن الدافع الجنسى لم يتميز فى نفسه بعيداً عن الميل الابتدائى للحياة ، وينكر يونج أن (اللبيد) جنسياً بكليته ، ويقول يونج ان الجنس ليس أساس الدوافع الإنسانية وإنما هو دافع واحد من عدة دوافع ويرى أن الدافع الإنسانى الأول لتصرفات الإنسان هو (الرغبة الملحة فى التفوق) والسيادة وليس الحب ويقرر إن إرادة القوة هى الإرادة الصادقة الأصيلة فى نفس كل إنسان ، كذلك دعا (أدلر) إلى نبذ أهمية الغريزة الجنسية النبذ كله ، وأرجع تكوين الشخصية ونشأة الأمراض العصبية إلى مجرد الرغبة فى القوة وحاجة الإنسان إلى التعويض عن أى نقص فى كيانه .

كذلك فقد سقطت نظرية فرويد فى مسألة (العقد) وهى النظرية الماكرة التى خدع بها الكثيرون من أن توجيه الطفل أو ضربه يكون عنده عقدة من الكراهية للآباء والمربين . وقد تبين فساد هذه النظرية تماما ليس عن طريق تعارض النظرية بل عن طريق إستطلاعات الرأى الاحصائية التى قام بها رجال التربية الذين خدعهم فرويد أجيالا طويلة عن طريق الخوف من تكوين العقد فى نفوس الأطفال حتى كان كثيرون يتحرون وفى مقدمتهم الدكتور طه حسين حين سئل عن طريقته فى تربية أولاده . فقال أنه لا يوجههم ويدعهم إلى حريتهم الكاملة . وكذلك فعل كثيرون تخرجت أجيال لا تعرف المسئولية الفردية ولا مسئوليتها أمام الله تبارك وتعالى .

وفى هذا الصدد اجتمع الأطباء النفسانيون فى مدينة شيكاغو عام ١٩٠٦ وعددهم أربعة آلاف حيث أعلن الدكتور برسينال بيلى مدير معهد النفسيات بولايه الينواز أن أثر فرويد فى الطب النفسى لا يؤبه له وإن آرائه لا تضيف شيئا إلى القيم الإنسانية لأنه يرتد بالإنسان إلى أغوار الباطن ويهمل جانبه المنطقى الشاعر وأنه لم يكن يفهم المرأة أو يحس جلال العقيدة .

وقد أثار الدكتور صبرى جرجس فى كتابه (التراث اليهودى الصهيونى فى علم النفس ونظرية (فرويد) إلى أن الفكر الفرويدى كان يهدف أســاسا إلى تقويض الأسس التى تقوم عليها حضارة الغرب .

وقد هدمت نظريات فرويد واحدة إثر واحدة ، حتى لقد دعا العلماء الغربيون بعد دراسات طويلة بأن نظرية فرويد فى مسألة الطفولة ومسألة إرضاء الطفل وعدم معارضة رغباته . أنها نظرية فاسدة وأنها أتخذت وسيلة لعدم أصول التربية ، وقد كشف العلماء بالتجربه والإحصائيات فساد هذه النظرية وعدم جدواها ، وأعلن بعض العلماء الأمريكيين ضرورة استخدام الغرب كوسيلة لتقديم الأبناء وقالوا : إن مسلك الطفل لايتأثر بعامل واحد كما ذكر فرويد ولكنه يتأثر بعدة عوامل منها البيئة والوسط والحالة الاجتماعية فلا سبيل إلى إخضاع الطفل إلى نسق واحد .

وقال العلماء أنهم درسوا فى تجربتهم أحوال ١٥٨ طفلا غير منحرفين ، منهم الفقراء والأغنياء وقد نشأ الاولاد أصحاء مستقيمين بالرغم من القيود القاسية فى تربيتهم ، ودل ذلك على أن مسلك الطفل لا يتأثر بالتوجيه الابوى ولا بالزجر ولا بالضرب كذلك أثبتت الدراسات العلمية – غير المغرضة أو الموجهة لهدم البشرية – أن الدافع الجنسى يأتى فى مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى كالدوافع إلى الهواء أو الشراب أو المال ، ثم ان هذا الدافع الجنسى يخضع التربية والتوجيه بمعنى أننا نستطيع تربية الإنسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسى ويتحكم فيه وبذلك تكون العفة أمراً ليس ممكناً فحسب بل ضروريا كما أثبتت الأبحاث ان هناك تنظيما طبيعياً للشهوة . فى الإنسان بحيث تستطيع كثير من الوسائل كالرياضة الجسدية أو الروحية أو الشعر أو الموسيقى أن تستوعبه ، وقال الباحثون ببطلان دعوى فرويد الأساسية وهى ان المرض العصبى (العصاب) ينشأ من أمور جنسية طفولية مكنونة ولكن البحث أثبت أن الامور الجنسية الطفولية المكبوتة ليست وقفا على الذين أصيبوا بعصاب فى وقت ما فى حياتهم ، ولكنها موجودة عند كل إنسان وتشكل عاملا هاما فى حياته .

وهكذا نجد أن ما دعا اليه فرويد من أن الطفل يعالج مما أسماه كبت الميول الجنسية ، ليس (اكذوبة) كبرى أراد بها تبرير الاباحة وآثار بها الخوف فى النفوس حتى يحول دون اعداد الشباب وتربيتهم

وتكوينهم تكوينا خلقيا وان ما يرمى إليه من ترك الميول حرة تسلك سبيلها إلى ما تشاء وان ييسر لها السبيل ليس إلا دعوة صريحة إلى الاباحة ، ونحن اليوم يجب علينا أن تقف موقفاً واضحا أزاء هذا الفكر المسموم وأن تعلن عن النظرية الإســلامية فى علم النفس . وهى الهدف الذى يرمى إليه المخطط التى أشارت اليه (بروتوكولات صهيون) وقد أشارت بالإسم إلى فرويد وأنها رتبت نجاحه واذاعة فكرة .

* * *

(٢)

الوجودية والفلسفة المادية

ان أزمة إنسان الحضارة المعاصرة تنبع من معين واحد هو الفلسفة المادية التى ألقت إليه مفهوم أنه إذا ما كان الموت هو نهاية الحياة فإن هذه الحياة زائفة، لا طائل وراءها ، ولذلك فالإنسان يرى أن الحياة عبث محض ، وان فكرة العدم المطلق ترعب القلوب ولذلك تعد أحدث الموت عند الماديين ذلك التمزق الداخلى ، وقد غذت (الوجودية) هذا المعنى فى نفوس الناس فأحرقت قلوبهم ،

ولا يزال الكتاب الوجوديون يضللون الناس فى كل مكان بأن فلسفتهم فى الخلاص من مشاكل الإنسانية المعقدة فى أن الإنسان حر الآن فى أن يتخذ الموقف الذى يلائمه وأوهموا السذج بأن فلسفتهم ثورية لأنها تغذى روح الثورة العارمة ضد كل شىء ضد الدين والمجتمع والأخلاق والفلسفات الأخرى على حـــد تعبير (سعدى أمين) .

* * *

ونقول أن الإنسان بطبيعة تكوينه وفطرته الربانية الجامعة بين الروح والمادة يتطلع إلى الخلود فإذا جاءت الفلسفة المادية فاقنعته بأن القيم المادية وحدها هى محور الفاعلية أصبح هناك فى النفس قسم كبير عاطل وعاطش ومظلم لا يجد ما يرويه أو يغذيه ، ومن أجل هذا جاءت الأديان بالمفهوم الصحيح الجامع الذى لا يعلى شأن الروح وحدها كما يفعل البوذيون والهندوكيون ولا يعلى شأن المادة وحدها كما يفعل الوجوديون والماركسيون ، جاءت الأديان لتضىء للناس شعلة الإيمان وتفرض تغذية الجانبين معا ورعايتهما معاً وحمايتهما معاً ولما كان الإنسان يتطلع إلى الخلود والفلسفة المادية تقول له (إن نهاية الحياة هى الموت) جاءت الأديان لتفتح له أعظم أبواب الخلود عندما علمته أنه على موعد مع الله تبارك وتعالى وأنه

سوف يبعث بعد موته ليحاسب على عمله فى الدنيا (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) .

وكانت القيمة العليا التى جاء بها الإسلام هى (التوازن) بين القيم الروحية والمادية ، وبين العقل والقلب ، والدنيا والآخرة ، هذه القيمة العليا هى التى لا يمكن بدونها للإنسان أن يتوحد مع ذاته ويحقق وجوده ، والتى بدونها يسرى ذلك التمزق والغربة والغثيان الذى حدثنا عنه كامو وسلوتر والذى كان مصدره (الفهم الانشطارى للنفس الإنسانية) وهكذا حل الإسلام مسألة الموت والعدم بالخلود الذى قدمه للإنسان والذى يبدأ من نقطة التكليف والمسئولية الفردية والالتزام الخلق ، من حيث أن الإنسان له هدف وغاية فى السعى . ومن ثم فإن هذا العمل يجزى عليه بعد الموت حيث يبعث الإنسان ويحاسب وحيث الحياة الأخرى الخالدة وهى جنة أبداً أو نار أبداً .

* * *

فى ضوء هذا المفهوم نستطيع أن ننظر إلى هذا الركام المركوم من كتابات الوجودية التى ما زالت تنفث سمومها فى البلاد العربية والإسلامية مع أنها أوشكت على النهاية فى بلادها بعد موت سارتر وبعد أن حرقتها انتقادات الناقدين من كل جانب وكشفت عن أنها ليست فلسفة حقيقية وإنما هى (وصفة) مؤقتة قدمت للناس بعد

سقوط فرنسا فى براثن الألمان فى الحرب العالمية الثانية وانهيار القيم والمفاهيم ، وقد جاءت كتابات كامو وسارتر كلها تتحدث عن الغربة والغثيان والعبثيات والظلام والخوف من الموت ، وكان هذا كله نتيجة التناقض الداخلى والتمزق نتيجة عدم القدرة على التوحد مع الذات وتحقيق وجود الإنسان .

فالإيمان بالبعث والخلود الذى قدمه الإنسان يحطم هذه المعانى الضالة جميعاً ويكشف زيفها ، ويذهب بهذا التمزق الداخلى ويذهب بالخوف من الموت جميعاً .

والمعروف أن أى نظرية تقوم على أساس مادى بحت فهى باطلة لأنها تنكر المفهوم الجامع للإنسان والوجود ، فهى تغفل العامل الروحى فى كيان الفرد وتغفل جانب الغيب الذى هو فوق المادة أو من وراء المادة ، ولقد كان لإمعان أصحاب الفلسفات المادية فى إنكار القيم الروحية أثره البعيد فى تشويه الإنسان وتخريب روحه ونفسه . وتوسع نطاق المتناقضات فى حياته ، فلو أن المفكرين المصلحين دعوا إلى توحيد عنصرى المادة والروح لانحلت هذه العقدة .

* * *

إن إنكار وجود الله تبارك وتعالى والبعث والجزاء من شأنه أن يحطم وجود الإنسان فى الحياة لأنه يسلبه المسئولية الفردية والجزاء

الأخلاق ويكله إلى المذهب الجمعى الذى يرى مسئولية الفساد والانحراف والأخطاء ملقاة على المجتمع بينما إن الدين يقرر فى حسم أن المسئوليات فردية وأن كل إنسان سيحاسب على عمله فى يوم البعث بعد الموت (وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) ومن عجب أن تجد هذه الفلسفة الزائفة مكاناً لها فى المجتمع الإسلامى الذى قام على مفهوم الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ويجمل القول فى هذا كله :

أولا : جاء الإسلام بالتوازن بين القيم فكرية ونفسية دونما طغيان لقيمة على قيمة والإسلام يستخدم عنصرى الفكر والنفس للوصول إلى هدفه ، والتوازن يسد الطريق أمام الانحرافات التى تفصل بينهما أو تعلى أحدهما على الآخر فهما متداخلان متكاملان لا ينفصلان والفصل بين القيم الروحية والقيم المادية من شأنه أن يعيب الإنسان بالتناقض الداخلى والازدواج النفسى ، كما أن عدم الإيمان بعالم آخر يحاسب فيه الإنسان على أعماله وتقرر فيه الخلود من شأنه أن يجعل الحياة كلها عبثاً وانحرافاً .

وكلما تكامل الإنسان فى دائرة التوازن بين الروح والمادة ابتعد عن الشعور بالازدواج والتمزق فيتوحد مع ذاته .

ثانياً : إن فكرة الخلود التى جاء بها الإسلام لقطع الطريق على كل ما يسمى بالحديث أو صناع الجهد الإنسانى اللذين يدفعان الوجوديين إلى القول (بلا معقولية) الحياة أو (لا جدوى) العطاء

الإنسانى ، فالإيمان بالبعث والجزاء يقضى على يأس الإنسان وتخوفه من المصير المظلم ويمنحه قوة نفسية خارقة يحقق بها المعجزات ، ذلك أن فكرة العدم ترتبط بها بالضرورة أفكار العبث واللاجدوى وضياع الجهد الإنسانى ، وهذه المعانى تدفع الإنسان إلى اليأس والانتحار .

هذه هى وجهة نظر الإسلام فى مواجهة الفلسفة الوجودية كما أوردها مجموعة من الباحثين المسلمين فى مقدمتهم عماد الدين خليل وسيد قطب ومحمد أسد .



رقم الإيداع / ٨٣٧٠ / ١٩٩٠

* مطبعة دار البيان *

١٠ / حارة السكاكيني – عابدين